

الدكتور حامد عبد الفتاح جوهر رائد علوم البحار فى المنطقة العربية^(*)

يحرص كل أفراد الأسرة على الالتفاف حول جهاز التلفاز فى الرابعة والنصف من مساء كل ثلاثاء ، إنه موعد البرنامج الأسبوعى (عالم البحار) ، الذى تقدمه القناة الثانية من التلفاز المصرى ، منذ ما يقرب من عشرين سنة ، إن شرائط البرنامج قد تكون قديمة ، سبق عرضها فى نفس البرنامج ، أو فى برامج أخرى ، ولكنها - فى كل مرة يعرضها هذا البرنامج المتميز - يكون لها مذاق جديد ؛ وذلك بفضل المادة العلمية الشائقة التى يتضمنها تعليق مقدم البرنامج ، وينساب التعليق حياً - على الهواء - فى لغة بسيطة لا تستعصى على الصغار ، ويأنس لها الكبار ، ويجدون - أسبوعاً بعد أسبوع - أنهم يحصلون على وجبة علمية شهية ويضيفون المزيد إلى رصيدهم من المعلومات عن أسرار وخبايا البحار والمحيطات .
والشئير للدهشة أن مقدم البرنامج يختلف تماماً عن « نموذج »

(*) رحل الدكتور حامد عبد الفتاح عن عالمنا فى السابع عشر من يونية عام ١٩٩٢ ، أثناء كتابة هذا الموضوع عن سيرته ؛ وكان فى اليوم السابق لوفاته قد قدّم حلقة الثلاثاء الأسبوعية من برنامجه التلفازى (عالم البحار) .

مقدمى البرامج الذين اعتاد المشاهدون رؤيتهم ، إنه شيخ فى الخامسة والثمانين ، ذو لحية وقور يختلط فيها اللون الأبيض باللونين الرمادى والبني ؛ ولعينيه زرقة مياه البحر ؛ لا يتسم ، ولكنه ليس عابس الوجه ؛ لا يلفت النظر فى ملابسه سوى ربطة العنق التقليدية التى يحرص عليها ؛ لا ينطق حرف الرء نطقا سليما ، بل أقرب إلى الواو ، غير أن له جاذبية خاصة تربط المشاهدين ببرنامجه ، تشبه (الحضور) المسرحى لممثل المسرح العظام .

ولا نكون مبالغين إذا قلنا إن النجاح الذى حققه الدكتور حامد عبد الفتاح جوهر فى العمل الإعلامى - وإن جاء متأخراً جداً - كانت له بذوره التى غرست أثناء سنوات التنشئة ؛ إذ كان يهوى الموسيقى والتصوير الفوتوغرافى ؛ كما اهتم باللغة العربية ، فحفظ كثيراً من الشعر القديم ، بالإضافة إلى جانب من أشعار أحمد شوقى وحافظ إبراهيم . ولعل هذا الاهتمام المبكر باللغة العربية هو الذى قاده فى عام ١٩٥٣ ، إلى مقعده فى (مجمع الخالدين) ، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، ليشغله حتى تاريخ وفاته : وليصبح مقررًا لأربع من لجانه .

والعجيب أن الدكتور حامد جوهر لم يسع إلى دراسة العلوم ، بل كان أمله أن يصبح طبيباً ؛ ونجح - فعلا - فى الالتحاق بكلية الطب ، واجتاز السنة الإعدادية التى كان برنامجها الدراسى هو نفسه برنامج السنة الأولى فى شعبة العلوم الطبيعية بكلية

العلوم ، وقد اجتذبت المواد الدراسية فى ذلك البرنامج ؛ وكانت دراسة العلوم جديدة على مصر ، فوجد حامد جوهر نفسه مدفوعاً إلى الدراسة فى كلية العلوم .

وفى عام ١٩٢٩ ، تخرجت أول (دفعة) فى كلية العلوم الوليدة ، تميز فيها كل من الدكتور محمد مرسى أحمد عالم الرياضيات ؛ والدكتور محمود مختار عالم الفيزياء ؛ وعاشق البحر الأحمر ، رائد علوم البحار ، الأستاذ الدكتور حامد عبد الفتاح جوهر ، الذى اختير للعمل معيداً فى قسم علم الحيوان .

وحتى ذلك الوقت ، لم يكن بيال حامد جوهر أن يتجه إلى البحر ، بالرغم من غرامه بالسباحة والتجديف ورياضة القوارب الشراعية ، بل يمكنك أن تقول بأن ثمة حنيناً إلى دراسة الطب كان يراوده ويجتذبه إلى القراءة فى علوم الطب ، حتى إنه اختار لدراسة الماجستير موضوعاً شديد الصلة بالمجال الطبى ، إذ حملت رسالته لنيل تلك الدرجة عنواناً ، هو : « التشريح الدقيق وهستولوجيا الغدد الصم فى الأرنب » . وحصل جوهر على أول درجة ماجستير تمنحها الجامعة المصرية (جامعة القاهرة) ، وكان ذلك فى مايو ١٩٣١ .

لعلنا لا نتوقف كثيراً أمام التحول الذى حدث فى حياة الشاب حامد عبد الفتاح جوهر ، وجعله يتخلى عن لقب (طبيب) شغفاً بالعلوم ، ولكن كيف نفسر التحول الثانى الذى جعل



في مرحلة الدراسة الجامعية

جوهري بريشة أ. د. نجيب سليمان



د. جوهري يتحدث إلى مجموعة من زائري المحطة عن عروس البحر التي
أعطاهها ١٤ سنة من عمره !

(المدرس المساعد) جوهر يتوقف عن التقدم التقليدى فى مجال علم الفسيولوجيا المحدود داخل جدران المختبر ، لتجتنبه الحياة البحرية ، فيترك العاصمة الصاخبة القاهرة ، ويرضى بمنفاه المحبب فى كوخ خشبى ، يطل مباشرة على مياه البحر الأحمر بالغردقة ؟ كانت البداية لفترة طيبة من أستاذه (أدولف نيف) ، الذى كافأه على ما بذله من جهد فى إعداد رسالة الماجستير ، بأن أرسله فى رحلة إلى الغردقة ، وفيها محطة الأحياء المائية التى كانت تابعة للجامعة المصرية ، وكانت - فى ذلك الوقت - فريدة فى نوعها ، تخدم الأبحاث والباحثين ، ليس فى مجال علوم البحار فقط ، ولكن أيضاً فيما يختص بالصحراء ؛ كما كانت المحطة الوحيدة من نوعها فى المنطقة التى تشمل البحر الأحمر والمحيط الهندى وجنوب المحيط الهادى ، وقد احتفظت بهذه المكانة لسنوات طويلة .

استغرقت أول زيارة للدكتور حامد جوهر لمحطة الغردقة ثلاثة أسابيع ، وكانت كافية لأن يقع العالم الشاب فى أسر البحر الأحمر الذى أعطاه بقية عمره ، وانشغل به عن السعى إلى تكوين أسرة ، محاولاً أن يزيل جانباً من الغموض الذى كان يحيط بذلك البحر وكائناته .

وتتابعت رحلات جوهر إلى الغردقة خلال السنوات الثلاث التى قضها كمعيد فى كلية العلوم ، إن الرحلة الآن من القاهرة إلى مدينة الغردقة تستغرق حوالى خمس ساعات فى سيارة مكيفة أما فى زمن

بداية تعلق العالم الشاب حامد جوهر بمحطة الغردقة ، فقد كان عليه أن يركب القطار من القاهرة إلى السويس ، ثم ينتظر قارباً كان ينقل المياه يومياً إلى ذلك المكان النائي ، فى رحلة بحرية شاقة تستغرق يوماً كاملاً ، ولكن تلك المشقة لم تضعف عزمه ، بل ازداد تشبثه بذلك الموقع الفريد الساحر ، ولعله هو نفسه الذى سعى ليحصل على عمل جديد ، متخلياً عن موقعه الجامعى الشديد الإغراء فى قلب الجامعة القاهرية ، فتم تعيينه فى عام ١٩٣٤ مساعداً للمدير الإنجليزى لمحطة الأحياء المائية بالغردقة (سيريل كروسلاند) .

وهكذا أقام جوهر بالغردقة إقامة دائمة ، متفرغاً لأبحاثه واهتماماته العلمية التى غطت بعض كائنات الشعاب المرجانية ، وأنواعاً من المراجين ، والقواقع ، والرخويات ، وعروس البحر .

ولحامد عبد الفتاح جوهر مع الحيوان المسمى بعروس البحر حكاية طويلة وقد قادته الصدفة إلى أول لقاء بها ، حيث وجد بعضاً من عظامها متناثراً على الشاطئ ، فجمعه وعكف على دراسته ؛ وأضرّ على الحصول على نموذج حى منها ، فصمم لها نوعاً خاصاً من الشباك ، ونجح فى الإمساك بها حية فى عام ١٩٤٢ ، وبلغ عدد العرائس التى حصل عليها ست عشرة ، أخضعها لبرنامج بحثى ضخم استغرق أربع عشرة سنة ، ثم بدأ ينشر أبحاثه الرائدة عن ذلك الحيوان الثديى الغريب ، ولم ينقطع اهتمام الدكتور جوهر بعروس البحر ، حتى بعد أن تقاعد وترك

الفردقة ، ففي عام ١٩٨٠ ، تعرض ذلك الحيوان البحري لحادث بيئي في الخليج العربي ، فطلب جوهر من أحد تلاميذه ، وكان يعمل بإحدى جامعات الخليج ، أن يذهب إلى موقع الحادث ويصور له شريطاً كاملاً عن أحوال عروس البحر التي عايشها زمناً طويلاً .

ووجد جوهر في مختبره بمحطة الأحياء المائية بالفردقة ضالته وعالمه المنشود ، واتبع نظاماً صارماً في إدارة العمل بالمحطة ، طبقه على نفسه ، قبل أن يلزم به العاملين بالمحطة ؛ فكان الدوام الرسمي بالمحطة يمتد من السادسة صباحاً حتى الرابعة بعد الظهر ، لسائر العاملين بالمحطة ، ماعدا الدكتور جوهر الذي كان يستمر في عمله إلى ما بعد التاسعة مساءً ، وكان بالمحطة مولد كهربى وحيد ، يعمل حتى التاسعة فى الأحوال العادية ، فإذا كان جوهر لا يزال ملازماً للمختبر ، كان المولد يعمل لساعات إضافية .

وكانت الفردقة بمثابة المنفى لكثير من العاملين بالمحطة ، وبعضهم ينتدب أو ينقل إليها كنوع من العقاب الإدارى ، ويظل يحلم بالفكاك منها ، ولاشك أن إدارة جوهر للمحطة كانت عبئاً إضافياً على بعض الموظفين ، فهو دائم الحرص على أن يكون كل شىء فى مكانه الصحيح ، وأن يتم العمل كما يجب أن يكون ، ويقول واحد ممن عاصروه بالمحطة : « إن ترك سيجارة مشتعلة على منضدة العمل كان جريمة تستحق المساءلة القانونية » ، يحكى أحد تلاميذه

عن واقعة اصطلياد حوت بمدينة السويس فى عام ١٩٤٩ ، :
« فما إن وصل الخبر إلى جوهر حتى ركب سيارة نقل إلى
السويس طلباً للحوت ، وكان المسئولون هناك قد قاموا بتقطيع
الحوت الميت ، فأخذ جوهر يجمعه قطعة قطعة ؛ واكتشف أن
أحد فكى الحوت مفقود ، فنشر إعلاناً فى الصحف ورصد مكافأة
لمن يعيد الفك الضائع ، ونجح فى الحصول عليه » .

ويؤكد أحد تلاميذه فيقول : « بقدر الصعوبة التى كنا نعانى
منها فى التعامل معه ، فقد تعلمنا منه الدقة فى العمل وتجويده ،
وكان يجعلنا نعيد كتابة صفحات عديدة من رسائلنا العلمية ،
التى كان يشرف عليها عشرات المرات ، حتى يستقيم أسلوبها ،
ونحظى منه بعبارة الرضى : لا بأس » .

وكان جوهر حريصاً على نشر أبحاثه العلمية فى المجالات العلمية
ذائعة الصيت ، مثل (Nature) ، و

. (The Publications of the Marine Biological Association, U.K)

وقد استعان فى أبحاثه بالتصوير تحت الماء ، ويشتمل عدد كبير
من الأوراق البحثية التى نشرها على صور ضوئية التقطها بنفسه ،
مستخدماً آلة تصوير بدائية ، ومتحايلاً ببعض الوسائل البسيطة ،
لتؤدى عملها تحت سطح البحر ، فى زمن لم يعرف تكنولوجيا
التصوير تحت سطح الماء .

• نوكان جوهر يحتفظ بالنماذج والعينات من الكائنات البحرية

التي يحصل عليها ويعالجها - بعد الانتهاء من دراستها - بالمواد الحافظة أو بالتحنيط ؛ وذلك لتأسيس متحف بحرى بالمحطة ، وقد زار كاتب هذه السطور محطة الغردقة أكثر من مرة ، وتفقد المتحف الذى تركه لنا ذلك العالم الجليل ، والذى يحتوى على أعداد من مختلف أنواع الكائنات البحرية ، محفوظة فى حالة جيدة ، ومجموعة من الطيور البحرية المحنطة التى أصبحت نادرة ، أو لعلها انقرضت أو كادت ، وللأسف فلم يعتن أحد بأن يضيف إلى هذه الثروة من المقتنيات المتحفية ، بل إن المجموعة القديمة مهددة بالفساد مع مرور الزمن ، لاحتياجها إلى المكان المناسب للعرض ، ولأعمال الصيانة المستمرة .

وكما اهتم جوهر بتأسيس هذا المتحف البحرى ، لم يكن ليفوته أن يكون لمركز أبحاث فى مستوى محطة الأحياء المائية بالغردقة مكتبة خاصة ، وتحفظ مكتبة المحطة ، فى الوقت الحالى ، وبفضل جهود جوهر ، بمجموعات نادرة من المراجع والكتالوجات العلمية الهامة ، فى مختلف مجالات علوم البحار ، أبرز ما فيها الوقائع العلمية لعدد من الرحلات العلمية البحرية الشهيرة . والحقيقة أن المكتبة - حالها كحال المتحف - تحتاج إلى كثير من العناية صونا لثروتها من أمهات الكتب والمراجع العلمية وهى تحتاج أول ما تحتاج إلى مبنى حديث ، وإلى بعض وسائل تكنولوجيا إدارة المكتبات وحفظ المعلومات وتداولها ، بالإضافة إلى تنميتها وتزويدها بأحداث الإصدارات العلمية .

وفى عام ١٩٤٠ أصدرت محطة الأحياء المائية بالغردقة نشرتها العلمية التى احتوت أعدادها المتتالية على أبحاث الدكتور جوهر وتلاميذه ، ولم تلبث هذه المجلة العلمية أن اكتسبت شهرة عالمية ، وكانت توزع على أكثر من ثلاثمائة مركز علمى مناظر فى جميع أنحاء العالم ، بنظام التبادل ، فكان ذلك أحد روافد إثراء مكتبة الغردقة بالدوريات العلمية .

وفى خلال سنوات قليلة من بداية عمله بمحطة الغردقة ، نمت وتبلورت الشخصية العلمية للدكتور جوهر ، ووجدت أبحاثه المنشورة بالمجلات العلمية العالمية صدقاً طيباً فى الدوائر العلمية الأجنبية ، وتميزت من بينها - بصفة خاصة - دراساته على أنواع جديدة من المرجانيات اللينة ، اكتشفها بنفسه لأول مرة بالبحر الأحمر ، وكان طبعياً أن يجد العالم الشاب مردوداً طيباً لجهوده العلمية الجادة ، فدعته جامعة كمبردج البريطانية فى عام ١٩٣٧ ، كباحث زائر بها ، وامتدت تلك الزيارة قرابة الستين . وقد استغل حامد جوهر تلك الفرصة على أفضل وجه ، حيث استفاد من الإمكانيات العملية والمكتبية ، فأجرى بعض البحوث ، كما زار العديد من الجامعات ومحطات الأحياء البحرية ومتاحف التاريخ الطبيعى فى عدد من العواصم والمدن الأوربية .

وعقب عودته إلى مصر فى أكتوبر ١٩٣٨ ، وجد فى انتظاره منصب رئيس محطة الغردقة ، بعد رجوع الإنجليزى كروسلاند

إلى بلاده ، ويقول الدكتور جوهر عن ظروف توليه هذا المنصب :
« كان الانطباع العام لدى الإنجليز أنه لا يمكن لمصرى أن يحتمل
قسوة الحياة فى تلك البقعة النائية ، وعزَّ على أن تكون هذه هى
النظرة إلينا ، ولأننى كنت أول مصرى يلى وظيفته بعد الأجانب ،
فقد رأيت تحدياً لا بد من قبوله ، ولا بديل أمامى عن النجاح » .
ويبدو أنه وجد فى ذلك التحدى دافعاً لنجاحات مستمرة ، تحققت
على مدى ٢٩ عاماً (١٩٣٨ - ١٩٦٧) ، هى المدة التى تمتعت
فيها محطة الغردقة برئاسة الدكتور جوهر ، وكانت عصرها الذهبى .
وفى مطلع سنة ١٩٤٠ ، توجت مسيرة العالم الشاب بدرجة
الدكتوراه فى العلوم (D. Sc.) ، قدمتها له جامعة كمبردج ،
لمجمل دراساته الرائدة التى كشف فيها عن بعض أسرار الحياة فى
البحر الأحمر ، ولم يكن الدكتور جوهر وقتها قد بلغ سن الثالثة
والثلاثين ، فكان أصغر مصرى على الإطلاق يحصل على هذه
الدرجة العلمية الفاخرة .

ولا يمكن لأحد أن يلوم عالماً أعطى كل هذا العطاء العلمى
إذا اكتفى بالجلوس فى برجه العاجى ، محاطاً بجدران مختبره ؛
ومنعزلاً فى ذلك المكان النائى ، غير أن الدكتور جوهر لم يكن
كذلك ، بل كان أشبه بالظاهرة الطبيعية الطيبة التى امتدت بالخير
فى كل اتجاه ، فنال الدرجات العلمية على يديه عشرات من
تلاميذه ، يكونون فيما بينهم مدرسة علمية محددة الملامح ؛ كما شارك

فى عضوية ، أو فاز برئاسة ، العديد من الجمعيات العلمية ومجالس الجامعات واللجان المحلية والعالمية ؛ فكان رئيساً لجمعية علم الحيوان المصرية ، وللجمعية المصرية لعلوم البحار ، وللأكاديمية المصرية للعلوم ، وللمجمع المصرى للثقافة العلمية ، وعضواً بالأكاديمية الدولية لعلماء المسامك ، ورابطة البيولوجيا البحرية بالهند ، واللجنة الاستشارية لبحوث الثروة البحرية (لمنظمة الغذاء والزراعة FAO) . وفى عام ١٩٧٣ ، أسهم فى إنشاء معرض الأسماك الحية بمتحف قطر الوطنى ، وقسم علوم البحار بجامعة قطر .

وكما اكتسب الدكتور جوهر احترام وتقدير عديد من الهيئات والمؤسسات العلمية العالمية ، قوبل فى وطنه بالتقدير الذى تمثل فى منحه لقب (بك) فى عام ١٩٤٦ ، كما حصل على جائزة الدولة فى العلوم عام ١٩٥٣ ، ثم على جائزة الدولة التقديرية فى عام ١٩٧٤ .

أم التقدير الأكبر - فى رأينا - فهو مشاعر الحب التى كانت تحيط به فى كل ثلاثاء ، حين كان يدخل إلى بيوتنا ، ويطل علينا من خلال التلفاز ، بإدثاً بتحيته التقليدية : مساء الخير (*) .

(*) اعتمدت فى كتابة هذا الفصل على الاتصالات الشخصية بصفة أساسية ، وعلى معلومات متفاوتة القيمة مستمدة من أحد أعداد مجلة (أكتوبر) وأحد أعداد مجلة Cairo Today ؛ بالإضافة إلى نشرة خاصة أصدرتها جمعية علم الحيوان بمصر ، فى نوفمبر ١٩٨٨ ، بمناسبة بلوغ الدكتور جوهر عامه الثمانين .